هم - إذن - لم يلتفتوا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا يموت ظالم إلا بعد أن ينتقم الله منه[1].

وهم لم يلتفتوا إلى أن وراء هذه الدار داراً أخرى يجازَى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وكان المنطق يقتضي أن يؤمن هؤلاء بأن لهذا الكون إلهاً عادلاً، ولابد أن يجيء اليوم الذي يجازى فيه كل إنسان بما عمل، ولكنهم سخروا مثل سخرية الذين كفروا من قبلهم، وجاء خبرهم في قول الله سبحانه على ألسنتهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) ﴾ [يونس]

ولكن وعد الله حق، ووعد الله قادم، ومحمد ﷺ رسول من الله، يبلغ ما جاء من عند الله تعالى، فرسول الله ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً.

ولذلك يقول القرآن بعد ذلك:

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) ﴾

والرسول ﷺ يبرِّئ نفسه من كل حَوْل وطَوْل[2]، ويعلن ما أمره الحق

(١) يقول الحق: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) ﴾ [إبراهيم]، ويقول الرسول ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته».

(٢) الحَوْل: الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف في الأمور.
والطول: الفضل والغنى واليسر. قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم .. (٢٥) ﴾ [النساء]. [المعجم الوسيط].

سبحانه أن يعلنه ، فهو ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ؛ لأن النفع أو الضر بيد خالقه سبحانه ، وهو سبحانه وتعالى خالقكم ، وكل أمر هو بمشيئته سبحانه .

وهذه الآية جاءت رداً على سؤالهم الذي أورده الحق سبحانه في الآية السابقة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) ﴾ [يونس]

لقد تساءلوا بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب ، وكأنهم استبطأوا نزول العذاب تهكُّماً ، وهذا يدل على أن قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

هذه الآية لم تنزل ليوم القيامة ، بل نزلت لتوضح موقف مَنْ كفروا برسول الله ﷺ والذين قالوا بعد ذلك :

﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) ﴾ [يونس]

وهذا يعني أنهم قالوا هذا القول قبل أن تقوم القيامة ، والآية التي توضح أن لكل أمة رسولاً تؤيدها آيات كثيرة ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾ [الإسراء]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا .. (١٣٤) ﴾ [طه]

وكل ذلك يؤيد أن الرسول المرسل إلى الأمة هو الرسول الذى جاء بمنهج الله تعالى ؛ فآمن به قوم ، وكذَّب به آخرون ، وقضى الله بين المؤمنين والكافرين بأن خذل الكافرين ونصر المؤمنين.

وإن استبطأ الكافرون الخذلان فلسوف يرونه ؛ ولذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا .. (٤٩) ﴾ [يونس]

أى : أنكم إن كنتم تسألون محمداً ﷺ عن الضر والنفع ، فهو ﷺ مبلِّغ عن الله تعالى ، ولا يملك لنفسه ضَرّاً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملك لهم هم ضَرّاً أو نفعاً ، وكل هذا الأمر بيد الله تعالى ، ولكل أمة أجلٌ [1] ينزل بالذين كفروا فيها بالعذاب ، ويقع فيها القول الفصل.

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ..(٤٩) ﴾ [يونس]

يفيد أن مشيئة الله هى الفاصلة ، ويدل على أن النبى والناس لا يملكون لأنفسهم الضر أو النفع ؛ لأن الإنسان خُلق على هيئة القَسْر [2] فى أمور ، وعلى هيئة الاختيار فى أمور أخرى ، والاختيار هو فى الأمور التكليفية

---

(١) الأجل - مدة الشىء ، وغاية الوقت ووقت الحياة ، أو وقت الدين أو وقت العمل . والأجل نفس الوقت الذى أجل له الأمر : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ ..(٢٩) ﴾ [القصص] أى : أتم المدة المحددة له ، وأجّل الشىء : حدد له أجلاً مستقبلاً : ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) ﴾ [المرسلات] أى : حد الموت أو الهرم وقوله : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ..(٢) ﴾ [الأنعام] الأول : هو مدة البقاء فى الدنيا ، والثانى : هو مدة البقاء فى القبور إلى يوم القيامة ، أو مدة الحياة الآخرة ، وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ..(٢٣٤) ﴾ [البقرة] . أى : نهاية مدة العدة . والآجل ضد العاجل ، والآجلة ضد العاجلة . [القاموس القويم] .

(٢) القسر : القهر والإجبار .

مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

وأنت حُـرٌ فى أن تطيع أو أن تعـصى ، وكل ذلك داخل فى نطاق اختيارك ، وإن صنع الإنسان طاعة ، فهو يصنع لنفسه نفعاً ، وإن صنع معصية ، صنع لنفسه ضَرّاً.

إذن: فهناك فى الأمور الاختيارية ضر ونفع .

ومثال ذلك: من ينتحر بأن يشنق نفسه ، فهو يأتى لنفسه بالضر ، وقد ينقذه أقاربه ، وذلك بمشيئة الله سبحانه.

إذن: ففى الأمور الاختيارية يملك الإنسان - بمشيئة الله - الضر أو النفع لنفسه ، والله سبحانه يبين لنا أن لكل أمة أجلاً ، فلا تحددوا أنتم آجال الأمم ؛ لأن آجالهم - استئصالاً ، أو عذاباً -هى من عند الله سبحانه وتعالى.

والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه ، فالله تعالى مُنزَّه أن يكون موظفاً عند الخلق ، بل هو الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

وهو سبحانه القائل:

﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل:

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً [1] (١١)﴾ [الإسراء]

(١) عَجُولاً: صيغة مبالغة تفيد التعجّل فى الأمور. واستعجل الأمر طلبه عاجلاً سريعاً ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ..(١١)﴾ [يونس] والعاجل: السريع ضد الآجل، والعاجلة الدنيا ، والآجلة الآخرة ، يقول الحق: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)﴾ [القيامة] . أى: الدنيا، وعجل الأمر طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة ، وعجل الأمر سبقه . قال الحق سبحانه : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ..(١٥٠)﴾ [الأعراف] .

إذن: فالحق سبحانه يؤخر مراداته رحمة بالخلق ، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن ميعاده ، ولا يتقدم عن ميعاده.

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يونس]

وقوله سبحانه : ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ليست من مدخلية جواب الشرط الذى جاء بعد ﴿ إِذَا[1] جَاءَ أَجَلُهُمْ ..﴿٤٩﴾ ﴾ [يونس]

لأن الجواب هو : ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾.

فهم لا يستقدمون قبل أن يحين الأجل.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وهذا ردٌّ شاف على استعجالهم للعذاب ، فإن جاءكم العذاب فَلْنَرَ ماذا سيكون موقفكم ؟

وهُمْ باستعجالهم العذاب يبرهنون على غبائهم فى السؤال عن وقوع العذاب.

وقول الحق سبحانه: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ . أى: أخبرونى عما سوف يحدث لكم.

---

(١) إذا : تأتى لمعنيين شرطية وفجائية . إذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل ، فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ..﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنعام] ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون المرفوع بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ ﴾ [الانشقاق] أى : إذا انشقت السماء ، وإذا تكون حرفاً للمفاجأة ، وتخفض بالجملة الإسمية ، قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه] « القاموس القويم» .

وشاء الحق سبحانه أن يأتي أمر العذاب هنا مبهماً من جهة الزمان فقال سبحانه:

﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ..(٥٠) ﴾ [يونس]

والبيات مقصود به الليل؛ لأن الليل محل البيتوتة، والنهار محل الظهور.

والزمن اليومي مقسوم لقسمين: ليل، ونهار.

وشاء الحق سبحانه إبهام اليوم والوقت، فإن جاء ليلاً، فالإنسان في ذلك الوقت يكون غافلاً نائماً في الغالب، وإن جاء نهاراً، فالإنسان في النهار مشغول بحركة الحياة.

والحق سبحانه يقول في موضع آخر:

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا [1] بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) ﴾ [الأعراف]

ويقول سبحانه:

﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) ﴾ [الأعراف]

ولو نظرت إلى الواقع لوجدت أن العذاب يأتي في الليل وفي النهار معاً؛ لأن هناك بلاداً يكون الوقت فيها ليلاً، وفي ذات الوقت يكون الزمن نهاراً في بلاد أخرى.

وإذا جاء العذاب بغتة، وحاولوا إعلان الإيمان، فلن ينفعهم هذا

---

(١) بأسنا: عذابنا والبأس القوة، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ..(٢٥) ﴾ [الحديد]، أي: قوة وصلابة، وقوله تعالى: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ..(٨٤) ﴾ [النساء] شدتهم وقوتهم فيصدهم عنكم، وقوله الحق: ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ..(١٧٧) ﴾ [البقرة]، أي: وقت الحرب الشديدة، وقول الحق: ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ..(٨١) ﴾ [النحل]، أي: شدتكم وقوتكم في الحرب، فتحفظكم الدروع من أخطار الحرب. والبأساء: الفقر والشدة، ويقول الحق: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ..(١٧٧) ﴾ [البقرة] في وقت الفقر والحاجة.

الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يقول فيمن يتخذ هذا الموقف :

﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس]

فإن جاءكم العذاب الآن لما استقلتم منه ؛ لأنه لن ينفعكم إعلان الإيمان ، ولن يقبل الله منكم ، وبذلك يصيبكم عذاب في الدنيا ، بالإضافة إلى عذاب الآخرة ، وهذا الاستعجال منكم للعذاب يضاعف لكم العذاب مرتين ، في الدنيا ، ثم العذاب الممتد في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ﴾

أي : إذا ما وقع العذاب فهل ستؤمنون؟

إن إعلان إيمانكم في هذا الوقت لن يفيدكم ، وسيكون عذابكم بلا مقابل .

إذن : فاستعجالكم للعذاب لن يفيدكم على أي وضع ؛ لأن الإيمان لحظة وقوع العذاب لا يفيد .

ومثال ذلك : فرعون[1] حين جاءه الغرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِي

(١) وذلك أن فرعون خرج في جيش كبير يقدر بمائة ألف ولحق بموسى عند حافة البحر وقت شروق الشمس ، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء] ، ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « لما أغرق الله فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل . قال جبريل : يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر (أي : طين البحر) فأدسه في فيه (أي : فمه) مخافة أن تدركه الرحمة » أخرجه الترمذي في سننه و قال : حديث حسن . وانظر تفسيري ابن كثير (٢/ ٤٣٠) والقرطبي (٤/ ٣٣٠٥) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ[1] هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

وهذا إخبار عن العذاب القادم لمن كفروا ويلقونه في اليوم الآخر، فهم بكفرهم قد ظلموا أنفسهم في الدنيا، وسيلقون العذاب في الآخرة، وهو ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: عذاب لا ينتهي.

وينهي الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أي: أن الحق سبحانه لم يظلمهم، فقد بلغهم برسالة الإيمان عن طريق رسول ذي معجزة، ومعه منهج مفصَّل مؤيَّد، وأمهلهم مدة طويلة، ولم يستفيدوا منها؛ لأنهم لم يؤمنوا.

إذن: فسيلقون عذاب الخلد، وقد جاء سبحانه هنا بخبر عذاب الخلد؛ لأن عذاب الدنيا موقوت، فيه خزي وهوان، لكن محدوديته في الحياة يجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد.

وجاء الحق سبحانه بأمر عذاب الخلد كأمر من كسبهم، والكسب زيادة عن الأصل، فمن يتاجر بعشرة جنيهات، قد يكسب خمسة جنيهات.

وهنا سؤال: هل الذي يرتكب معصية يكسب زيادة عن الأصل؟

نعم؛ لأن الله سبحانه حرَّم عليه أمراً، وحلله هو لنفسه، فهو يأخذ

(١) الخلد: الدوام، والمراد أنه عذاب دائم. [اللسان: مادة (خ ل د)].

زيادة في التحليل ، وينقص من التحريم وهو يظن أنه قد كسب [1] بمفهومه الوهمي الذي زين له مراد النفس الأمارة ، وهذا يعني أنه ينظر إلى واقع اللذة في ذاتها ، ولا ينظر إلى تبعات [2] تلك اللذة ، وهو يظن أنه قد كسب ، رغم أنه خاسر في حقيقة الأمر.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي [3] وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ [4] ﴿٥٣﴾﴾

وهم قد قالوا من قبل: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ.. ﴿٤٨﴾﴾ [يونس]

وهم هنا قد عادوا للتساؤل. ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ﴾ أي: يطلبون منك النبأ. والنبأ هو الخبر المتعلق بشيء عظيم ، وهم يطلبون الخبر منك يا رسول الله ويتساءلون: أهو حق ؟

وكلمة «حق» هنا لها معطيات كثيرة ؛ لأن ﴿هُوَ﴾ يمكن أن تعود على أصل الدين قرآناً ؛ ونبوَّة ، وتشريعاً ، وهي كلمة تحمل التصديق بأن القرآن حق ، والتشريع حق ، والنبوة لمحمد ﷺ حق ، والقيامة والبعث حق ، والكلام عن العذاب في الدنيا بخذلانهم ونصرة المؤمنين عليهم حق.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ.. ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة] فالذي يحلل الحرام وأدخله على نفسه عليه أن يتحمل التبعات المترتبة على هذا ، فله بعمله الصالح الكسب ، وعليه بعمله السيء جزاء ما اكتسب.

(٢) تبعة الشيء: نتيجته وعاقبته وما يترتب عليه من أثر. [المعجم الوسيط: مادة (ت ب ع)].

(٣) إي: نعم. حرف جواب.

(٤) أي: أنكم لن تُعجزوا الله عن أن يعيدكم بعد موتكم وأن يحشركم وأن يعذبكم بما كنتم تكسبون.

إذن: فقولهم: ﴿ويستنبئونك[1] أحق هو.. (٥٣)﴾ لها أكثر من مرجع، كأنهم سألوا: هل القرآن الذى جئت به حق؟

وهل النبوة التى تدَّعيها حق؟

وهل الشرائع - التى تقول: إن الله أنزلها كمنهج يحكم حركة الإنسان - حق؟

وهل القيامة والبعث حق؟

وهل العذاب فى الدنيا حق؟

إنها كلمة شاملة يمكن أن تؤول إلى أكثر من معنى.

ويأتى الجواب من الله تعالى:

﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ.. (٥٣)﴾ [يونس]

وأنت حين يستفهم منك أحد قائلاً: هل زيد موجود؟ فأنت تقول: نعم موجود. ولا تقول له: والله إن زيداً موجود؛ لأنك لن تؤكد الكلام لمن يسألك؛ لأنه لا ينكر وجود زيد.

إذن: فأنت لن تؤكد إجابةً ما إلا إذا كان هناك فى السؤال شبهة إنكار.

إذن: فأنت تستدل من قول الحق سبحانه:

---

(١) النبأ: الخبر، أو الخبر ذو الشأن، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ] وهذا النبأ هو البعث. وأنبأه بالشىء ونبأه به: أخبره به، وأنبأ يتعدى لمفعول به واحد، مثل قوله تعالى: ﴿أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ.. (٣٣)﴾ [البقرة]، ويتعدى لمفعولين مثل: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا.. (٣)﴾ [التحريم]، وقد يتعدى بحرف الجر (عن) كقوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١)﴾ [الحجر] أى: حدثهم. واستنبأه: طلب أن ينبئه كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ.. (٥٣)﴾ [يونس].

﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ..(٥٣)﴾ على أن سؤالهم يحمل معانى الإنكار والاستهزاء ؛ ولذلك جاء الجواب بـ «إى»[1] وهو حرف جواب يعنى : «نعم» ، وتأتى «إى» دائماً مع القسم.

ولكل حرف من حروف الجواب مقام ، فهناك «بلى» وهى تأتى فى جواب سؤال منفى ، فى مثل قوله تعالى :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ..(١٧٢)﴾ [الأعراف]

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿ إِي وَرَبِّي .. (٥٣)﴾ [يونس]

تعنى : نعم وأقسم بربى إنه لحق. وأنت لا تُقسم على شىء إلا إذا كان السائل عنده شبهة إنكار ، وتأتى بـ «إن» لمزيد من هذا التأكيد.

ومثال ذلك فى قوله سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ[2] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا[3] بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾ [يس]

وماذا كان رد من بُعث اليهم الثلاثة؟

﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥)﴾ [يس]

هكذا كان إنكار المكذبين للرسل الثلاثة شديداً. فقال لهم الرسل :

---

(١) إى : حرف جواب ، مثل نعم . ويقع بعد القسم كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ..(٥٣)﴾ [يونس] .

(٢) قيل : هى أنطاكية ، بين سوريا وتركيا وقد تكون قرية أخرى ، وكان ملكها يعبد الأصنام ، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل فكذَّبهم . من تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٨) بتصرف .

(٣) عزَّزنا : أيَّدنا وقوَّينا .

﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) ﴾ [يس]

فكان قولهم هذا مناسباً لإنكار الكافرين الشديد.

إذن: فالتأكيد فى أسلوب المسئول إنما يأتى على مقدار الإنكار، فإن لم يكن هناك إنكار ؛ فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد.

أما إذا صادف الكلام إنكاراً قليلاً ، فالتأكيد يأتى مرة واحدة.

وإن صادف الكلام لجاجة فى الإنكار جاء التأكيد مرتين.

أما إذا ما صادف الكلام تبجُّحاً فى الإنكار فالتأكيد يأتى ثلاث مرات.

وقد علَّم الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا أن يرد على استنبائهم بأن يقول لهم: ﴿ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ .. (٥٣) ﴾ [يونس]

وهنا يقسم الرسول ﷺ بالرب ؛ لأن الرب هو من كلَّفه ، ثم يؤكد ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لأن سؤالهم تضمَّن الإنكار والاستهزاء.

وما دام قد قال: ﴿إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فهم إن لم يؤمنوا فسوف يلقون العذاب ؛ لأنه ليس هناك مَنْجًى من الله تعالى ، ولن تُعْجِزوا الله هرباً ، ولن تعجزوه شفاعة من أحد ، ولن تعجزوه بيعاً ، ولن تعجزوه خُلَّة تتقدم لتشفع لكم.

ثم يأتى قوله سبحانه فى نهاية الآية :

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) ﴾ [يونس]

وقد أراد الحق سبحانه أن يفسر لمحة من الإعجاز ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى من الممكن أن يقبل شفاعة الشافعين ، ومن الممكن أن يقبل

الفداء [1] ؛ ولذلك جاء الإيضاح فى الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ [2] لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

وساعة يأتى العذاب فالإنسان يرغب فى الفرار منه ، ولو بالافتداء.

وانظر كيف يحاول الإنسان أن يتخلص من كل ما يملك افتداء لنفسه ، حتى ولو كان يملك كل ما فى السموات وما فى الأرض [3].

ولكن هل يتأتى لأحد - غير الله سبحانه - أن يملك السموات والأرض؟

طبعاً لا.

إذن : فالشر لا يتأتَّى. وهَبْ أنه تأتَّى ، فلن يصلح الافتداء بملك ما فى السموات وما فى الأرض ؛ لأن الإنسان الظالم فى الدنيا قد أخذ حق الغير ، وهذا الغير قد كسب بطريق مشروع ما أخذه الظالم منه ، والظالم إنما يأخذ ثمرة عمل غيره ، ولو صحَّ ذلك لتحوَّل البعض إلى مغتصبين لحقوق الغير ، ولأخذوا عرق وكدح غيرهم ، ولتعطلت حركة الحياة.

---

(١) الفداء : ما يقدم من مال ونحوه لتخليص المفدى. قال تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات]. [المعجم الوسيط : مادة (ف د ى)].

(٢) ندم على ما فعل يندم ندماً وندامة ، من باب فرح : أسف وتحسر وتمنى أنه لم يفعله ، قال تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [يونس] ونادم اسم فاعل قال الحق : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة].

(٣) يقول سبحانه : ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾ [المعارج].

ولذلك إن لم يردع الله - سبحانه وتعالى - الظالم فى الدنيا قبل الآخرة لاستشرى الظلم ، وإذا استشرى الظلم فى مجتمع ، فالبطالة تنتشر فيه ، ويحاول كل إنسان أن يأخذ من دم وعرق غيره ، وبهذا يختلّ ميزان العدل وتفسد حركة الحياة كلها.

وهَبْ أن الظالم أخذ مُلْك الدنيا كلها ، وأراد أن يفتدى به نفسه ساعة يأتى العذاب ، ويفاجأ بأن كسبه من حرام لا يُقْبَل فداءً ، أليس هذا هو الخسران الكبير؟ وهذه ظاهرة موجودة فى دنيا الناس.

وهَبْ أن واحداً ارتشى أو اختلس أو سرق ، ويفاجئه القانون ليمسكه من تلابيبه [1] فيقول : خذوا ما عندى واتركونى. ولن يقبل القائمون على القانون ذلك. وإن كان مثل هذا التنازل يحدث فى (الجمارك) فنرى من يتنازل عن البضائع المهربة مقابل الإفراج عنه ، هذا ما يحدث فى الدنيا ، لكنه لن يحدث فى الآخرة.

وفى سورة البقرة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ [2] وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾ [البقرة]

وقال الحق سبحانه فى آية أخرى :

---

(١) التلابيب : مجامع ثياب الرجل. والتلبيب : هو جمع الثوب الذى يلبسه عند صدره ونحره ، وجرّه. [اللسان مادة لبب].

(٢) العدل : الفدية المماثلة ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ..(٤٨) ﴾ [البقرة] أى : لا ينجيها من العذاب دفع فدية مماثلة ولا تقبل منها. وعدل الشىء وعدّله أقامه وسواه ، قال الحق : ﴿ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) ﴾ [الانفطار] وعدل المشرك بربه : جعل له مساوياً. قال تعالى : ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ..(١) ﴾ [الأنعام] وما كان ينفى أن يعدلوا غيره ، فليس كمثله شىء ، ومثلها قوله : ﴿ أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ [النمل] أى : يجعلون له شريكاً مساوياً. وأما قوله : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) ﴾ [الأعراف] أى : يحكمون بالعدل [القاموس القويم].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾ [البقرة]

وقال بعض المشككين أن الآيتين متشابهتان ، ولم يلتفتوا إلى أن كل آية تختلف عن الأخرى فى التقديم للعدل ، والتأخير للشفاعة .

والبلاغة الحقَّة تتجلَّى فى الآيتين ؛ لأن القارىء لصَدْر كل آية منهما ، والفاهم للمَلَكة اللغوية العربية يعرف أن عَجُز كل آية يناسب صدرها .

ومن يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ ..(٤٨)﴾ [البقرة]

يرى أنه أمام نفسين : النفس [1] الأولى هى التى تقدِّم الشفاعة ، والنفس الثانية هى المشفوع لها . والشفاعة هنا لا تُقبل من النفس الأولى الشافعة ، وكذلك لا يُقبل العدل .

وفى الآية الثانية لا تُقبل الشفاعة ولا العدل من النفس المشفوع لها ، فهى تحاول أن تقدم العدل أولاً ، ثم حين لا ينفعها تأتى بالشفيع .

وهكذا جاء التقديم والتأخير فى الآيتين مناسباً للموقف فى كل منهما .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ..(٥٤)﴾ [يونس]

وفى هذا القول تعذُّر مِلْك النفس الواحدة لكل ما فى الأرض ، ولو افترضنا أن هذه النفس ملكته فلن تستطيع الافتداء به ؛ وتكون النتيجة هى ما يقوله الحق سبحانه :

(١) فالآية الأولى تتحدث عن عدم القبول من النفس الشافعة ، والآية الثانية تتحدث عن عدم قبول العدل أولاً والشفاعة ثانياً من النفس المشفوع لها ، هذا ما يفهم من مرادات الشيخ رضى الله عنه .

﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ..(٥٤)﴾ [يونس]

أي: أخفوا الحسرة التي تأتي إلى النفس ، وليس لها ظاهر من انزعاج لفظي أو حركي.

إن كلاً منهم يكتم هَمَّه في قلبه ؛ لأنه ساعة يرى العذاب ينبهر ويُصعَق ويُبهَت [1] من هول العذاب ، فتجمد دماؤه ، ولا يستطيع حتى أن يصرخ ، وهو بذلك إنما يكبت ألمه في نفسه ؛ لأن هول الموقف يجمِّد كل دم في عروقهم ، ويخرس ألسنتهم ، ولا يستطيع أن ينطق ؛ لأنه يعجز عن التعبير الحركي من الصراخ أو الألم.

ونحن نعلم أن التعبير الحركي لون من التنفيس البدني ، وحين لا يستطيعه الإنسان ، فهو يتألم أكثر.

هم - إذن - يُسِرُّون الندامة حين يرون العذاب المفزع المفجع ، والكلام هنا عن الظالمين ، وهم على الرغم من ظلمهم ، فالحق سبحانه يقول:
﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ [2] وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤)﴾ [يونس]

وهؤلاء رغم كفرهم واستحقاقهم للعذاب يلقون العدل من الله ، فَهَبْ أن كافراً بالله بمنأى عن الدين ظلم كافراً آخر ، أيقف الله سبحانه من هذه المسألة موقفاً محايداً ؟

لا ؛ لأن حق خَلْق الله سبحانه - الكافر المظلوم - يقتضي أن يقتص الله سبحانه له من أخيه الكافر الظالم ؛ لأن الظالم الكافر ، إنما ظلم مخلوقاً لله ، حتى وإن كان هذا المظلوم كافراً .

ولذلك يقضي الله بينهم بالحق ، أي: يخفِّف عن المظلوم بعضاً من

(١) يبهت: أي: يتملكه هول ما يحدث ؛ فينقطع عن الكلام أو غيره.
(٢) القسط: المراد به هنا العدل.

العذاب بقدر ما يثقله على الظالم .

هذا هو معنى ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ لأنها تتطلب قضاء ، أي : عدم تحيز ، وتتطلب الفصل بين خصومتين.

ويترتب على هذا القضاء حكم ؛ لذلك يبين لنا الحق سبحانه أنهم - وإن كانوا كافرين به - إلا أنه إن وقع من أحدهم ظلم على الآخر ، فالحق رب الجميع وخالق الجميع ، كما أعطاهم بقانون الربوبية كل خير مثلما أعطى المؤمنين ، فهو سبحانه الذى أعطى الشمس ، والماء ، والهواء ، وكل وسائل الرزق والقُوت لكل الناس - مؤمنهم ، وكافرهم - فإذا ما حدث ظلم بين متدينين بدين واحد ، أو غير متدينين ، فلا بد أن يقضى فيه الحق سبحانه بالفصل والحكم بالعدل.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ[1] حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

و«ألا» فى اللغة يقال عنها «أداة تنبيه» وهى تنبه السامع أن المتكلم سيقول بعدها كلاماً فى غاية الأهمية ، والمتكلم - كما نعلم - يملك زمام لسانه ، بحكم وضعه كمتكلم ، لكن السامع يكون فى وضع المُفاجَأ.

وقد يتكلم متكلم بما دار فى ذهنه ليبرزه على لسانه للمخاطب ، ولكن المخاطب يفاجأ ، وإلى أن ينتبه قد تفوته كلمة أو اثنتان مما يقوله المتكلم.

---

(١) وعده شيئاً يعده وعداً وعدة : أخبره أنه سيحققه له أو سيعطيه إياه ، يتعدى لمفعولين ، وقد يحذف أحد المفعولين للعلم به ، قال الحق : ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ .. (٩٥)﴾ [النساء] كلا : مفعول به أول مقدم ، والحسنى مفعول به ثان . أى : أخبرهم الله أنه سيعطيهم أحسن الدرجات ، والوعد يأتى للخير كثيراً ، وللشر أحياناً كما فى قوله : ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ..(٢٦٨)﴾ [البقرة] أى : ينذركم ويخوفكم بالشر ، والفعل متعد لمفعولين « كم » مفعول أول ، والفقر مفعول ثان . [القاموس القويم - بتصرف] .

والله سبحانه وتعالى يريد ألاَّ يفوت السامع لقوله أى كلمة ، فأتى بأداة تنبيه تنبه إلى الخبر القادم بعدها ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [يونس]

هكذا شاء الحق سبحانه أن تأتى أداة التنبيه سابقة للقضية الكلية ، وهى أنه سبحانه مالك كل شىء ، فهو الذى خلق الكون ، وخلق الإنسان الخليفة ، وسخَّر الكون للإنسان الخليفة ، وأمر الأسباب أن تخضع لمسببات عمل العامل ؛ فكل من يجتهد ويأتى بالأسباب ؛ فهى تعطيه ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً.

وإذا خدمت الأسبابُ الإنسانَ ، وكان هذا الإنسان غافلاً عن ربه أو عن الإيمان به ، ويظن أن الأسباب قد دانت له بقوته ، ويفتن بتلك الأسباب ، ويقول مثلما قال قارون:

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ (١) عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص]

فالذى نسى مسبِّب الأسباب ، وارتبط بالأسباب مباشرة ، فهو ينال العذاب ، إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة ؛ فكأن الحق سبحانه ينبههم: تَنبَّهوا أيها الجاهلون ، وافهموا هذه القضية الكبرى: ﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [يونس]

فإياك أيها الإنسان أن تغترَّ بالأسباب ، أو أنك بأسبابك أخذت غير ما يريده الله لك ، فهو سبحانه الذى أعطاك وقدَّر لك ، وكل الأسباب

---

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص] . وقارون هو ابن عم موسى عليه السلام ، أعطاه الله من الأموال المودعة فى الخزائن حتى أن مفاتيحها لا تستطيع الجماعة من الناس حملها لكثرتها وثقلها ، فأهلكه الله ببغيه وفرحه بماله وتعظمه على الناس ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] فكان جزاؤه : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] .

تتفاعل لك بعطاء وتقدير من الله عز وجل .

وفى أغيار الكون الدليل على ذلك ، ففكرك الذى تخطِّط به قد تصيبه آفة الجنون ، والجوارح مثل اليد أو القدم أو اللسان أو العين أو الأذن قد تُصاب أيٌّ منها بمرض ؛ فلا تعرف كيف تتصرف .

وكل ما تأتى فيه الأغيار ؛ فهو ليس من ذاتك ، وكل ما تملكه موهوب لك من مسبِّب الأسباب .

فإياك أن تنظر إلى الأسباب ، وتنسى المسبِّب ؛ لأن لله ملك الأشياء التى تحوزها والأدوات التى تحوز بها ؛ بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك ، فتنبه أيها الغافل ، وإياك أن تظن أن الأسباب هى الفاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأسباب ؛ ثم يشاء ألا تأتى بنتائجها ، كمن يضع بذور القطن - مثلاً - ويحرث الأرض ، ويرويها فى مواعيدها ، ثم تأتى دودة القطن لتأكل المحصول .

إذن : فمردُّ كل مملوك إلى الله تعالى .

واعلمْ أن هناك مِلْكاً ، وأن هناك مُلْكاً ، والمِلْك [(١)] هو ما تملكه ؛

---

(١) الملك : فى الأعيان والمحسوسات حقيقة ، وفى المعانى مجاز ، فمن الملك الحقيقى قال تعالى : ﴿إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ .. (٢٣)﴾ [النمل] ، ومن المجاز قوله : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس] .

ومالك اسم فاعل ، وجمعه مالكون ، قال الحق : ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ .. (٧١)﴾ [يس] ومملوك اسم مفعول كقوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً .. (٧٥)﴾ [النحل] والملك مصدر ، قال تعالى : ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. (٨٧)﴾ [طه] أى : بإرادتنا واختيارنا . والملك مصدر بمعنى السلطان ، قال تعالى : ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ .. (١٠٢)﴾ [البقرة] أى : على عهد ملك سليمان . والملك : الحاكم ، قال تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى .. (٥٤)﴾ [يوسف] هو فرعون ، وقرىء ملك يوم الدين ، ومالك يوم الدين . والملك والمالك والمليك من أسماء الله الحسنى ، والملكوت : الملك العظيم ، وهو لله خاصة ، قال الحق : ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ .. (٨٣)﴾ [يس] والملك واحد الملائكة « القاموس القويم - بتصرف » .

جلباباً ؛ أو بيتاً ، أو حماراً ، إلى غير ذلك ، أما المُلْك فهو أن تملك من له ملْك ، وتسيطر عليه ، فالقمة - إذن - فى المُلْك .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ..(٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : فالمُلك فى الدنيا كله لله سبحانه .

وكلمة «ألا» جاءت فى أول الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - لتنبِّه الغافل عن الحق ؛ لأن الأسباب استجابت له وأعطته النتائج ، فاغترَّ بها ، فيجعل الله سبحانه الأسباب تختلف فى بعض الأشياء ؛ ليظل الإنسان مربوطاً بالمسبِّب .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ..(٥٥) ﴾ [يونس]

والوعد إن كان فى خير فهو بشارة بخير يقع ، وإن كان بشرٍّ فهو إنذار بشرّ يقع ؛ ويغلب عليه كلمة «الوعيد» .

إذن : ففى غالب الأمر تأتى كلمة «وعد» للاثنين : الخير والشر ، أما كلمة «وعيد» فلا تأتى إلا فى الشر .

والوعد : هو إخبارٌ بشيء سيحدث من الذى يملك أن يُحْدِث الشيء .

وإنفاذ الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها الزمان ، ورابعها المكان ، ثم السبب .

والحدث يحتاج إلى قدرة ، فإن قلت : «آتيك غداً فى المكان الفلانى لأكلمك فى موضوع كذا» فماذا تملك أنت من عناصر هذا الحدث ؛ إنك

لا تضمن حياتك إلى الغد ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذى تحدد فيه اللقاء قد يصيبه ما يدمِّره ، والموضوع الذى تريد أن تتحدث فيه ، قد يأتى لك خاطر ألا تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء .

وهَبْ أن كل العناصر اجتمعت ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد ؟ لا شىء أبداً .

ولذلك يعلِّم الله سبحانه خَلْقه الأدب فى إعطاء الوعود ، التى لا يملكونها ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلا تَقُولَنَّ (1) لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾

[الكهف]

وحين تقدِّم المشيئة فإن حدث لك ما يمنع إنفاذ الوعد فلن تكون كذاباً .

وهكذا يعلِّمنا ربنا صيانة أخبارنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم فى نطاق قُدراتنا ، وقُدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث ، لكن إذا قال الله سبحانه ، ووعد ، فلا رادّ لما وعد به سبحانه ؛ لأنه منزَّه عن أن يُخْلف الميعاد ؛ لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تتأبَّى عليه (2) ، ووعده حق وثابت .

أما أنت فتتحكم فيك الأغيار التى يُجريها الحق سبحانه عليك .

---

(1) ذكر محمد بن إسحاق أن كفار قريش بعثوا وفداً منهم إلى أحبار اليهود يسألونه عن صفة الرسول ﷺ قائلين لهم : إنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فأوصى اليهود كفار قريش بسؤال محمد ﷺ عن ثلاثة أمور ، منها : «سلوه عن فتية فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب» فسألوه فقال رسول الله ﷺ : «أخبركم غداً عما سألتم عنه» ولم يستثن - أى : لم يقل : إن شاء الله ، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يوحى إليه فى ذلك شىء فنزلت هذه الآية . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٧١) .

(2) التأبى : هو الامتناع وعدم الانصياع . والإباء : أشد الامتناع . [اللسان : مادة أبى] .

وهَبْ أنك أردت أن تبنى بيتاً ، وقلت للمهندس المواصفات الخاصة التى تريدها فى هذا البيت ، لكن المهندس لم يستطع أن يشترى من الأسواق بعضاً من المواد التى حددتها أنت ، فأنت - إذن - قد أردت ما لا يملك المهندس تصرُّفاً فيه .

لكن الأمر يختلف بالنسبة للخالق الأعلى سبحانه ؛ فهو الذى يملك كل شىء ، وهو حين يَعد يصير وَعْدُه محتَّم النفاذ ، ولكن الكافرين ينكرون ذلك ؛ ولذلك قال الله سبحانه :

﴿ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۝٥٥﴾ [يونس]

أى : أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة ، فقد سبق أن قالوا :

﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. ۝٤٨﴾ [يونس]

أو أن ﴿ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ تعنى : أن الإنسان يجب ألاَّ يضع نفسه فى موعد دون أن يقدِّم المشيئة ؛ لأنه لا يملك من عناصر أى وعد إلا ما يشاؤه الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾

ونحن نعلم أن حركة الحياة ، والمِلْك والمُلْك ، هى فروع من الأحياء ، وهو سبحانه حَىٌّ ؛ لأنه مالك الأصل ، وهو القادر على أن يميت ، وكل ما يصدر عن الحياة يسلبه[1] الله سبحانه بالموت ، فهو

(١) سلبه الشيء ويسلبه من باب نصر سلباً : فزَعه منه قهراً أو اختلسه ، يقول الحق : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. ۝٧٣﴾ [الحج] أى : ينزع منهم شيئاً ، وهو فعل يتعدى لمفعولين «القاموس القويم» .